

## الهوية الوطنية والاثنية في عهد الامبراطورية الاشورية الحديثة والهوية الاشورية في الازمنة عقب الامبراطورية<sup>1</sup>

البروفسور سيمو پارپولا، جامعة هلسنكي/فنلنده  
ترجمة البروفسور ادورد يوحنا اوديشو  
جامعة نورث ايسترن/ شيكاغو

اتبع ملوك العهد الاشوري الحديث سياسة نشطة في بناء مقومات الامة حيث كانت حقوق المواطنة الاشورية تُمنح عُرفاً للسكان في المقاطعات المؤسسة حديثاً. وكنيجة لهذا العرف، اصبح كل سكان الدولة الشاسعة في غضون القرن السابع (699-609 ق.م.) يشتركون في الهوية الاشورية الوطنية التي تمثلت اساساً باللغة المشتركة (الارامية)، والدين المشترك، والثقافة والقيم المشتركة. وضلت هذه الهوية قائمة بدون تغيير حتى تحولت بعدئذ الى هوية اثنية في العهدين البابلي الحديث والاخميني (330-600 ق.م.). وبعد تفتت الامبراطورية السلوقية (130 ق.م.)، استمرت العديد من الممالك البيتنهرانية شبه المستقلة (عسريهون، اديابن، الحضرة، اشور) متمسكة بتقاليدھا الدينية والثقافية لغاية القرن الثالث الميلادي. ومنذ القرن الرابع الميلادي فصاعداً اصبحت المسيحية المقوم الاساس للهوية الاشورية وساعدت في الحفاظ على وجودها لحد هذا اليوم رغم العديد من المجازر والاضطهادات التي اختزلت الاشوريين اليوم الى اقلية صغيرة في اوطانهم. ان تشخيص الاثوريين والسريان المعاصرين اليوم لانفسهم

1 ان نسخة اولية لهذه المقالة كانت قد القيت في (المؤتمر) الثامن والاربعين لـ ( Rencontre Assyriologique Internationale) المنعقد في لايدن/هولندا (2002) والمكرس لموضوع "الاثنية في بلاد الرافدين". اود ان أشكر ادورد ي. اوديشو لتعليقاته على مسودة هذه الدراسة (الكاتب).

• مرت الامبراطورية الاشورية بثلاثة عهود تُصنّف عموماً كالاتي: العهد الاشوري القديم (قبل 1595 ق.م.)، العهد الاشوري الوسيط (1595-934 ق.م.)، والعهد الاشوري الحديث (934-609 ق.م.) (المحرر) Neo-Assyrian period.

• الكاتب من ابرز الشخصيات الاكاديمية في فنلنده وهو من المع اساتذة الاشوريات واغزرهم نشرها في العالم. انه لفخر لمجلة الدراسات الاكاديمية الاشورية (م.د.ا.ا) ان تنشر لهذه الشخصية العلمية العالمية (المحرر).

• ان عظمة هذه الدراسة لا تكمن في التسميات مثلما تكمن في جوانب اخرى من الدراسة. بقدر ما يتعلق الامر بالتسميات، فان م.د.ا.ا. - خاصة في ضوء التطورات السياسية والقومية في العراق - لا ترى فرقاً في التسميات المتداولة الشائعة بين ابناء امتنا من الاشوريين والكلدان والسريان. لقد ساندت المجلة وتساند كل محاولات الوحدة القومية تحت التسمية الكلدواشورية كشعب والتسمية السريانية كلغة. ان عظمة الدراسة تتجسد في ثلاث نقاط. الأولى تتعلق بالدلائل الدامغة التي توردها هذه الدراسة عن جذورنا التاريخية كابناء العراق الاصليين، تلك الجذور التي كانت تُمسح او تُقلب عكسا من قبل الحكومات العراقية السابقة. الثانية تُشخص بعمق ومثانة مقوماتنا القومية والوطنية كالارض واللغة والدين والحضارة. والثالثة تُبرز دورنا كاشوريين وبابليين واراميين في بناء وازدهار حضارة وادي الرافدين وعرضها الى الامم الاخرى. ولاهمية هذه النقاط ارتأت المجلة ترجمة متن البحث بحذافيره احتراماً للبحث العلمي والامانة العلمية وحرية الرأي (المحرر).

بهذه الاسماء مقتبس من كلمة "الاشوريون" التي كانت تُلفظ في عهد الامبراطورية الآشورية الحديثة أسوراو (Assūrāyu) و سورايو (Sūrāyu).

## المقدمة

كانت الامبراطورية الآشورية الحديثة (609-934 ق.م.) متعددة الاثنيات مكونة من عدة شعوب وقبائل مختلفة الاصول. ورغم تعددها الاثني، كانت الامبراطورية كيانا سياسيا موحدًا وبحدود مُصانة واضحة المعالم، وكان ملوك الآشوريين بلا شك يُعتبرون "ارض آشور" كُلاً موحدًا، يسعون دوماً الى توسيع رقعتها. وفي نظر العالم الخارجي كان كيان الامبراطورية متماسكا حيث السكان يعتبرون انفسهم اشوريين رغم اختلاف خلفياتهم الاثنية. على اي حال يبقى السؤال: ما مدى ايمان سكان الامبراطورية بالهوية الآشورية؟ هل كانوا يعتبرون انفسهم اعضاء في الامة الآشورية يؤمنون بنفس مثل واساليب حياة الطبقة الآشورية الحاكمة ام كانوا يشخصون انفسهم وفق اصولهم الاثنية المختلفة ويكرهون او يلغنون الحكم الآشوري واسلوب حياته؟ ساحاول الرد على هذه الاسئلة بتقييم المواد المتوفرة من خلال منظور نظري اولا ومن ثم من خلال استعراض تفصيلي للدلالة المتوفرة الآشورية منها وعقب الآشورية.

## 1. دور الاثنية في الدول المتعددة الاثنية

خلافا لما قد يظن البعض، فان الهوية الوطنية والهوية الاثنية ليستا مستقلتان الواحدة عن الاخرى تماما كما لا تعتمد الواحدة على الاخرى كل الاعتماد. ان اغلب مواطني الدول المتعددة الاثنيات يتبنون هوية اثنية ثانوية الى جانب الهوية الوطنية. ولعل افضل مثال على هذا هو الجيل الاول من المهاجرين الى الولايات المتحدة حيث يحتفظون باواصر حميمة ببلدهم الام رغم انهم سرعان ما يتبنون هوية امريكية ثانية. صحيح ان ابناء الجيل الاول الذين ولدوا في الولايات المتحدة هم مواطنون بالولادة (بالاصالة) الا انهم يحتفظون بشكل لاشعوري وقوي بهويتهم الاثنية بسبب علاقاتهم بذويهم ولغتهم وتراثهم الاصيلين. اما في الجيل الثالث فان وعيهم الاثني يبدأ بالانحسار ولكن دون الضياع التام. وهكذا فان تطور الهوية الوطنية يسير جنبا الى جنب مع اكتساب اللغة (الثانية) والاندماج الاجتماعي. وسرعان ما يتعلم الفرد لغة البلد الجديد ويستوعب العادات والتقاليد والقيم والمعتقدات الدينية ليصبح مواطنا كاملا في المجتمع يشارك الكل في هويتهم الجماعية. تستغرق كل هذه العملية ثلاثة اجيال لتكتمل وهي ليست حكرا على الولايات المتحدة بل انها عالمية في منحائها. ان وجود المجتمعات الاثنية في البلد المضيف يساعد ابناء واحفاد هذه المجتمعات على ديمومة هوياتها الاثنية ولكن ليس بامكان هذه المجتمعات ان توقف او تعكس عملية الانصهار (التماثل). على اية حال، ان الوعي الاثني مرتبط بالتعلم الذي يساعد على ديمومة الاثنية ما بعد فترة الاجيال الثلاثة والوعي الاثني مرتبط ايضا بالتمييز الاجتماعي والاضطهاد. لذا فان الاقليات الاثنية المضطهدة قد تتمكن من هوياتها الاثنية اكثر من الاقليات غير المضطهدة.

## 2. بناء الهوية الآشورية في الالف الاول ق.م.

لا شك ان الامبراطورية الآشورية كانت وظلت مجتمعا متعدد الاثنيات. ويبدو ان العديد من الاقليات الاثنية احتفظت بهوياتها (الى حد ما) لحين نهاية الامبراطورية. على سبيل المثال، تشير العديد من الوثائق القانونية من اشور ونيوى ودوركاتليمو (على الخابور) التي يرجع تاريخها الى العقود الاخيرة للامبراطورية، بان العديد من المواطنين الآشوريين عرفوا او عرفوا انفسهم

كمصريين، واسرائيليين، وعربا، واناضوليين وايرانيين استنادا الى اسمائهم او القابهم الاثنية المقرونة بهم. على اية حال، ليس مؤكدا المدى الذي تعكسه حقا هذه الاسماء او الالقاب الاثنية او الوعي الاثني. ومنذ اواخر القرن الثامن ق.م، بدأت المسميات الاثنية مثل "اربايو" (العربية)، "مادابو" (الميدية)، "مُصرايو" (المصرية) و"اورارتايو" (الاورارتية) تظهر مرارا كاسماء شخصية متداولة لافراد اكتسبوا الهوية الاشورية بالتمائل (assimilation) وشغلوا مراكز عالية. ان ابناء ثلاثة رجال يحملون اسماء اسرائيلية ذكرت في نص من اواخر القرن السابع وُجد في دوركاتليمو، كانوا جميعا يحملون اسماء اكدية و آرامية. ولاسباب سياسية وايدولوجية كانت اجزاء اخرى من الامبراطورية، مثل بابل، مُخيرة في الحفاظ على مؤسساتها التقليدية والبنية التحتية الادارية التي بدورها ساعدت على صيانة هويتها الاثنية. اضافة لما سبق، لم تكن بعض القبائل المتجولة وبعض الجيوب الاثنية في المناطق النائية ضمن حدود الامبراطورية تحت الحكم الاشوري كليا. لذا فانه من غير المعقول الادعاء بان كل شخص او تجمع في البلاد الاشورية كان حقا يحمل الهوية الاشورية (اي ان يكون اثنيا اشوريا).

من الجانب الاخر لا يمكن نكران حقيقة كون سكان الامبراطورية الاصليين معرضين الى عملية مستمرة للتمائل والاندماج منذ النصف الاخير للالف الثانية ق.م. ان هذا التماثل والاندماج يعزى بالايخص الى سياسة التهجير الجماعي التي بدأها اشورناصرال الثاني واستمرت بشكل واسع في عهد شلمانصر الثالث والسلالة السرجونية التي بمجموعها غيرت الخارطة السياسية والديموغرافية واللغوية للشرق الادنى القديم كليا. وبين 830 و640 ق.م، تم تهجير ما يقدر بـ 4.5 مليون نسمة من شتى اطراف الامبراطورية واسكانهم في اماكن اخرى خاصة في قلب الامبراطورية ومراكز المدن الكبرى. بدأت هذه التهجيرات اصلا لاسباب سياسية واقتصادية محضة ولكن في المدى البعيد كانت لها عواقب لغوية واجتماعية وثقافية واسعة.

## 2.1 تأريخ<sup>2</sup> (Aramaization) بلاد آشور

في البدء نقول ان الحركات السكانية جلبت مئات الالوف من الغرباء الى قلب بلاد آشور والاقاليم الشرقية من الامبراطورية اغلبهم من الناطقين بالارامية. كل ذلك ادى الى تحويل المجتمع الاشوري الاحادي اللغة الى مجتمع متعدد اللغات. وفي غضون فترة قصيرة - قرابة منتصف القرن الثامن ق.م- اصبحت الارامية اللغة المشتركة (*lingua franca*) في عموم الامبراطورية. وفي عين الوقت، بدأت الادارة الاشورية باستعمال الابجدية الارامية جنبا الى جنب مع الكتابة المسمارية. هنالك الكثير من الادلة منذ اواسط القرن الثامن فصاعدا التي تستعرض الكتابة الاراميين وهم يخطون على لفائف ورق البردي والجلود جنبا الى جنب مع الكتابة الاشوريين وهم يخطون على اللوح الطينية واللوح المشمعة. في الحقيقة، ان اشتغال الكتابة الاراميين بصحبة الكتابة الاشوريين قد ورد ذكره في الوثائق الادارية للامبراطورية بنصف قرن قبل ذلك. وفي حوالي 700 ق.م. كانت الابجدية الارامية قد حلت فعلا محل الكتابة المسمارية في جميع ارجاء الامبراطورية.

## 2.2 تأثر<sup>3</sup> (Assyrianization) سكان الامبراطورية

٢. جعلهم آراميين.

٣. جعلهم آشوريين.

ان تهجير واسكان اعداد ضخمة من الاجانب في الامبراطورية واعادة تنظيم الاجزاء المستولى عليها كمقاطعات اشورية اخضعت الكثير من السكنة الجدد الى تأثير مباشر ومتزايد للثقافة الاشورية. هذا التأثير شمل نظام الضرائب والخدمة العسكرية، ووحدة في التقويم والقضاء ونظام التجنيد وفي استعمال الاوزان والمقاييس والقيم الامبراطورية. اضافة الى ذلك، فالايديولوجية الملكية الاشورية والافكار الدينية والميثولوجية كانت دوماً تُنشر بين كافة شرائح السكان عبر الفن الامبراطوري وشخصية الامبراطور والاحتفالات الدينية وعبادة شخصوس الالهة آشور وعشتار ونابو وسين وغيرها. وهكذا اصبح سكان الاقاليم الحديثة مواطنين اشوريين روتينياً. يصح القول ان عملية التأثر اخذت مفعولها بسرعة اكثر في المدن الكبيرة في وسط البلاد غير ان مفعولها لم يكن ليقبل في الاقاليم الجديدة، خاصة تلك التي لم تعد بلدانا كعهدها السابق. فالنخبة المثقفة لهذه الاقاليم تم تهجيرها الى بلاد اشور واستبدلت باداريين اشوريين كما تم هدم عواصمها واعادة بنائها على طراز اشوري واصبح سكانها يشملون ليس فقط المهجرىين بل المهاجرين والمستعمرين الاشوريين كذلك.

### 2.3 التجانس الاجتماعي والثقافي في الامبراطورية

ان عملية التجانس الثقافي (Acculturation) بدأت واستمرت لاكثر من قرنين. وزاد هذا التجانس عبر التزاوج والمساهمة في الحملات العسكرية وبناء المشاريع والاشغال والتداخل بين كافة قطاعات السكان في شتى المجالات. وفي نفس الوقت الذي اصبحت الارامية اللغة العامة للامبراطورية وانتشر استعمال ابجديتها في الادارة، تم تحويل سكان الامبراطورية اللامتجانس الى سكان عاليي التجانس اجتماعيا وثقافيا. وهذا التجانس له شبيه كامل في التجانس الاجتماعي والثقافي في الولايات المتحدة الذي تم بموجبه تحويل مجتمع متعدد الاثنيات واللغات والثقافات الى مجتمع موحد متجانس عبر لغة موحدة هي الانكليزية. ومثل ما حدث في الولايات المتحدة حدث الشيء نفسه في بلاد اشور حيث تم ازالة الحزازات التي كانت تنشب بين مختلف المجموعات الاثنية. وفي نهاية المطاف، اصبحت الاصول الاثنية لمختلف الناس غير ذي اهمية كما تشهد على ذلك المسميات في العهد الاشوري الحديث حيث المئات من الاسماء الاكدية تم تبنيها من قبل افراد يحملون اسماء غير اكدية كما ان العديد من العوائل الاكدية الاسماء تبنت لابنائها اسماء ارامية.

### 2.4 تدويل الطبقة الاشورية الحاكمة وتثنية لغتها

لا يمكن فصم كل هذه التطورات عن التدويل (internationalization) المستمر للطبقة الحاكمة في العهد الاشوري الحديث. ورغم ان اشخاصا باسماء غير اكدية نادرا ما ورد ذكرهم كحاملة مناصب عالية في القرن التاسع ق.م، نرى الكثير منهم يحملون مثل هذه المناصب الادارية العالية في اواخر القرنين الثامن والسابع ق.م. ويبدو ان المنتسبين الجدد الى الطبقة الحاكمة الاشورية كانوا يتلقون التربية والتاهيل في الاداب والثقافة البيتنهرانية ويلبسون ويتصرفون مثل الاشوريين ويتكلمون الاكدية ويستعملون الكتابة السمارية كاعراف مميزة لمركزهم الاجتماعي. على اية حال، كانت الارامية لغتهم الرئيسية للتداول اليومي مثلما كانت لغة سائر الامبراطورية. ان الطبقة الحاكمة برمتها، من ضمنها العائلة المالكة، كانت على الأرجح ثنائية اللغة (Bilingual) على الاقل مع مطلع القرن السابع. وكل ملوك العهد الاشوري الحديث ابتداءً من تكلت بيلاسر الثالث الى اسرحدون كانت لهم زوجات او امهات ينطقن الارامية وهناك ايضا بعض المؤشرات التي توحى بان الارامية كانت بمثابة لغة الام لبعضهم. وهكذا كانت بلاد اشور في القرن السابع ق.م. مقسمة الى مجموعتين لغويتين رئيسيتين: الناطقون بالارامية – في الواقع قاطبة السكان – والناطقون بالاكدية بضمنهم اكثرية الناطقين

بلغتين في قلب بلاد اشور ومن ضمنهم اعضاء الطبقة الحاكمة. هذه الازدواجية في اللغة كانت اجتماعية اكثر من كونها ثقافية. والازدواجية اضمحلت بسقوط الامبراطورية وما تلى ذلك من تصفية للاستقرارية الاشورية. ورغم ان اللغة الاشورية الحديثة استمرت بشكليها المحكي والمكتوب في حران حتى نهاية حكم نبونيدس، لكن سرعان ما اضحت الازدواجية اللغوية المحكية الوحيدة في قلب اشور وسائر الامبراطورية.

## 2.5 بناء الهوية الاشورية الوطنية

تتطور الهويات الاثنية ذاتياً، اما الهويات الوطنية وخاصة في البلدان عديدة الاثنية، فانها تُبنى ارادياً وتصميم. ولهذا السبب يدعي بعض المؤرخين الاجتماعيين من امثال رودني هول بان الهويات الوطنية هي وليدة الازمنة الحديثة حيث لم يكن لها وجود في "الدويلات ذات السيادة" التي كانت سمة النظام العالمي قبل القرن التاسع عشر. ويعتقد هول ان المفهوم التجريدي للمواطنة – الذي يعتبره بحق الشرط الضروري لبناء الهوية الوطنية – ظهر مع بزوغ النزعة القومية في القرن الثامن عشر. وهكذا فانه يرى "بناء الامة" كمفهوم اساسي لمفهوم الامة-الدولة (-nation state) المعاصر الذي يعتمد فقط على "المجتمع المتصور (الخيالي)" للامة كمبدأ لشرعيته اكثر من شرعيته بتبريرات سلالية.

وجدير بالملاحظة ان الوطنية ومفاهيم الوطن والمواطنة ليست مظاهر جديدة البتة لانها لعبت فعلاً دوراً مهماً في العالم القديم ليس فقط في اثينا وروما بل كذلك في ما بين نهريين القديم. وبالنظر للمنافع الكثيرة التي ترتبت على امتياز المواطنة الرومانية – على سبيل المثال – يصبح من غير المعقول الادعاء بان المواطن الروماني لم يعتبر نفسه رومانيا ولم يشاطر الهوية الوطنية العمومية لروما.

كان مفهوم المواطنة الاشورية بالنسبة لبلاد اشور بالذات، محورياً لعملية التوسع. ونحن على يقين بان ملوك الاشوريين سعوا بتصميم وحزم لتوحيد شتى الشعوب التي حكموها في وطن واحد. واسم بلادهم "ارض اشور" عبر عن مملكة الله التي تميز نفسها عن بقية العالم. تكونت المملكة اولاً من المنطقة المحيطة بمدينة اشور غير انها توسعت بضم الاقاليم الاخرى واصبح كل اقليم جزءاً متمماً لارض اشور الاصلية واصبحت شعوبها تتمتع بحق المواطنة الاشورية الاعتيادية (mar'ē or nišē māt Aššūr or simply Aššūrāyē) وبكافة الحقوق والالتزامات المدنية. كان عليهم كاشوريين دفع الضرائب المقررة واداء الخدمة العسكرية وخدمة العمل التي في مقابلها ضمنوا سلامتهم ورفاهيتهم وتمتعوا بالعدالة امام القانون وحق الالتماس المباشر الى الملك في حالة الحاجة الماسة. والملك الذي يحكم كابن الله المختار كان بمثابة القاسم المشترك الذي يوحد الامة من خلال دوره كمغيث عند الضيق، كمنقذ للضعيف والمحروم، كمُشفٍ كبير، كشمس لشعبه وكراع طيب يحب ويصون قطيعه ويرشدهم الى المسار الصواب.

لذا فالهدف الاستراتيجي البعيد المدى للوطن الاشوري لم يكن بناء امبراطورية تُحكم بالاسلح بل امة موحدة برعاية ملك شبه-اله يُنظر اليه كمصدر للامان والسلام والرفاهية. وهكذا فالهدف كان يُحقق بسياسة تماثلية واندماجية مبرمجة موجهة لاحلال الهوية الوطنية الاشورية محل الهوية الاثنية للشعوب المغزية. وفاعلية هذه السياسة تتضح بجلاء بمصير عشرات الالوف من الحورانيين (Hurrians) الذين هُجروا من وطنهم واسكنوا في اشور في العهد الاشوري الوسيط. وبعد مرور عدة قرون تم تماثل سليل هؤلاء الحورانيين كلياً في المجتمع الاشوري دون اي اثر لهم باستثناء بعض الاسماء الشخصية المحورة جاء ذكرها في مصادر العهد الاشوري الحديث. وهكذا اكتسب هؤلاء الحورانيين اثنية اشورية لا يميزون عن غيرهم من مواطني اشور.

في ختام القرن السابع ق.م. كانت أكثر الأقاليم والتوابع في آشور، بضمنها لبنان، جزءاً من الأراضي الآشورية لمائة أو لمئات السنين. ولو تذكرنا ان الهوية الاثنية في المجتمعات عديدة الاثنية تبدأ بالتدهور في اثنتيها مع حلول الجيل الثاني، يصبح من غير المعقول البتة ان لا يعتبر ساكن بلاد آشور الاعتيادي نفسه في اواخر القرن السابع الا آشوريا. صحيح ان محيطه الثقافي كان تعددياً ومختلطاً الا انه كان في اعلى درجات التناسق في آشوريتته في كل مكان. ان بلاد آشور كان العالم الوحيد الذي يعرفه الفرد الآشوري، وكانت كل ذكراه عن جذور اجداه الاثنية قد انمحت واصبحت مفرغة من معناها بنتيجة التزاوج عبر الاثنيات. ويصح القول ان الناس في مختلف المناطق مارسوا عادات مختلفه ولبسوا لباساً مختلفاً وتكلموا العديد من اللغات المحلية وسجدوا مختلف الالهة المحلية، غير انهم جميعاً ادوا الولاء لملك واحد وسجدوا الالهة الوطنية وتكلموا نفس اللغة الوطنية – اي الارامية الامبراطورية. ولم تكن هذه الارامية نفس الارامية المتداولة من قبل الاراميين، بل كانت مولوداً جديداً في عهد الامبراطورية، اي لغة مشتركة ( *lingua franca*) ازدهرت كنتيجة لتداخل العديد من المجموعات الاثنية لتلعب دور الموحد لا المفروق. ان الدين والثقافة والرؤية والقيم المشتركة واللغة المشتركة – التي هي الاكثر اهمية – ميزت بلاد آشور كل التمييز عن بقية العالم وخلقت شعوراً عالياً للوحدة والتضامن في البلاد. والمفهوم المبطن في ثنائية "نحن" مقابل "الآخرين جميعاً" تتطابق تماماً مع الايدولوجية الثنائية للامبراطورية التي رأت الامبراطورية كمملكة الله كلّفَت بنشر نور الحضارة في العالم المحيط بها.

ان بناء بلاد آشور وصياغة هويتها الوطنية له نظير واضح يتمثل في روما القديمة التي توسعت من مدينة الى امبراطورية عالمية. ان التشبيه بروما له مغزى لأنه يُظهر كيف ان جذور الهوية الوطنية للامبراطورية الرومانية رسخت عميقاً حتى في الاجزاء النائية عن قلب الامبراطورية. ويُعتبر دستور انتونين الصادر في 212 م، الذي منح المواطنة الكاملة لكل سكان الامبراطورية، الاداة التي روجت في الشرق والغرب الوعي بالمواطنة الرومانية الذي ظل ساري المفعول حتى سقوط الامبراطورية وما بعدها. وبعد قرون من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية كان البيزنطيون لا يزالون يعتبرون انفسهم روماناً (Rhōmaioi) كما كانت جميع الامم في الشرق الادنى، هي الاخرى، تعتبر البيزنطيين روماناً ايضاً.

### 3. ديمومة الهوية الآشورية عقب الازمنة الامبراطورية

في متن هذه الدراسة، من المهم جلب الانتباه الى حقيقة ان الاقوام الناطقة بالارامية في الشرق الادنى كانوا يعرفون انفسهم منذ الازمنة القديمة بالاشوريين (Assyrians) وهم مستمرون في هذا التعريف لحد الان. ان تشخيص السريان والاثوريين المعاصرين لانفسهم بتسميات "سوريويو" (Sūryōyō) و"سورايا" (Sūrāyā) مقترنة في الجذر اللغوي بالتسمية القديمة لـ (Assyrian) والتي هي آشوراو (Aššūrāyu). ان هذا الاقتران يمكن اثباته بنظرة فاحصة للكلمات ذات العلاقة.

#### 3.1 اصل تسميات (Syrians= Sūryōyō) و (Assyrians=Sūrāyā) في العهد الآشوري الحديث (Neo-Assyrian، 605-911B.C.)

ان كلمة آشوراو او آشورايا هي صفة مشتقة من الاسم الجغرافي والديني لـ "أشور" مع اللاحقة "أيو". كان الاسم يُلفظ اصلاً "أشور=Aššūr" بصوت احتكاكي (رخو) لثوي-غاري، بيد ان التغير الصوتي في اوائل الالف الثانية ق.م. حول اللفظ الى "أشور=Aθθūr". والاسم

الارامي المتداول لبلاد اشور الذي هو "آشور = Aθūr " يعكس هذا التغير الذي في اكثر الاحتمال يعود الى القرن الثاني عشر ق.م. عندما حصل اول اتصال بين الاراميين والاشوريين. وفي اواخر الالف الثانية ق.م. حدث تغيير صوتي اخر جعل الاسم يُلفظ "آسور = Assūr". ولما كانت الصوائت (اصوات علة) غير المنبورة (الضعيفة) وحتى المقاطع الكاملة الضعيفة في اوائل الكلمات تُسقط على الاغلب في العهد الاشوري الحديث، اصبح لهذا الاسم بديلا اقصر هو "سور = Sūr" يرد في الاسماء الشخصية (المركبة) المدونة بالابجدية الارامية التي تحتوي كلمة "آسور" المتداولة في مستمسكات ارامية من آشور في اواخر القرن السابع ق.م. وانسجاما مع القاعدة نفسها ظهر في القرن السابع ق.م. بديلا اقصر لكلمة "آسورايو = Assūrāyu" هو "سورايو = Sūrāyu". هذا البديل مخفي في النصوص المسمارية الاشورية، غير ان وجوده مُثبت في المرادفات الاغريقية لكلمتي "آشور" و "آشوريون" التي تستعرض الاختلاف المتناظر بين الصياغتين: اي مع الالف الاولى " آ " كما في (Assúrios/Assuría) وبدونها كما في (Súrios/Súros/Suría انظر ملحق 3). فالاغريق الذين كانوا على اتصالات وثيقة مع بلاد اشور في القرنين الثامن والسابع، كان من غير المعقول لهم استعارة التسميات بالالف البدائية ومن ثم حذفها، ما لم يكن قد تم اسقاطها من قبل الاشوريين انفسهم لان حذف الصائت (صوت علة) الاولي ليس من سمات البناء الصوتي للغة الاغريقية الكلاسيكية.

من الناحية الصوتية ، التسمية الحديثة "سورايو = Sūrāyā" للاشوريين المعاصرين" تتفق تماما مع التسمية "سورايو" في العهد الاشوري الحديث بينما "سوريويو" السريانية لها "ياء" مقحمة مشتركة في " Súríos و Suría" الاغريقيتين. هذه "الياء" المقحمة ظهرت بتاثير اللغة الاغريقية لانه ترد ايضا في السريانية الكلاسيكية صيغة "Sūrōyō" التي تتطابق تماما مع الصيغة الشائعة في الاثرية المعاصرة "Sūrāyā". ومن الجدير بالملاحظة ان "Sūrāyā" لها بديل يُكتب بالف اولية لا تُلفظ لربما تحت تاثير الصيغة الكلاسيكية "Sūrōyō". وبما ان حذف الصوائت في مطلع الكلمات ليس من سمات النظام الصوتي الارامي فان اختفاء الصائت "a" في "Sūrāyā" و "Sūr(y)ōyō" لا يمكن ان يُنسب الى تطور داخلي في الارامية بل يجب ان يُعزى الى اللغة الاشورية في العهد الاشوري الحديث. ان التفسير الصوتي لتكوين "Sūrāyā/Sūr(y)ōyō" يشير الى ان هذه التسمية، التي هي مهمة جدا بالنسبة لهوية الشعوب الناطقة بالارامية، دخلت اللغة الارامية في القرن السابع ق.م. عندما كان الاراميون قد اندمجوا كليا في الامة الاشورية. وبالعكس من ذلك، فان تسمية "آشور"، التي استعارتها الارامية قبل امتزاجها بالاشورية، لا يمكن اعتبارها دخيلة لانها تسمية اصيلة شارك الاراميون باستعمالها مع الناطقين بالاكديّة من المواطنين.

### 3.2 تواصل الثقافة الاشورية في عهد الامبراطورية الاخمينية

مع سقوط نبوي، انشطرت الامبراطورية الى قسمين: الاول والغربي اصبح تحت حكم السلالة الكلدانية والثاني الشرقي وقع بيد ملوك ميديا. وفي 539 ق.م، احتوتها الامبراطورية الاخمينية حيث عُرف القسم الغربي بولاية اشور الكبرى (آشور) والقسم الشرقي بولاية ميديا (مادا).

وبالرغم من زوال قوة آشور السياسية من الوجود غير ان شعبها وثقافتها ودينها وصلوا وجودهم. وعلى النقيض الحاد لسياسة الدمج الحازمة لملوك العهد الاشوري الحديث، لم يتدخل الاخمينيون في الشؤون الداخلية لولاياتهم طالما تدفقت الضرائب وامارات الثناء دون انقطاع. ولم تكن الاحيرة مشكلة في بلاد اشور حيث اغدق السكان على ملكهم العظيم بالتبجيل كمصدر للسلم والامان. ان مقولات احيقار الحكيم – وهي مجموعة من امثال الحكمة تمت صياغتها في العهد

الاشوري الحديث- اثنت على خصيلة الخوف من الله والملك كاسمي فضيلة خلقية. وكون هذه المقولات متمركزة في البلاط الملكي الاشوري فانها ساهمت في تعزيز الهوية الاشورية للسكان. اما الاخمينيون الذين كانوا قد تأشروا (Assyrianized) ايضا لدرجة كبيرة، لم يروا اي داع لتغيير الواقع القائم، وبقي كل شئ في عهدهم على ما كان عليه. واستمرت اللغة الارامية كلغة مشتركة للامبراطورية الاخمينية واضحى الخط الارامي - الذي سُمي من قبلهم بالخط الاشوري- الوسيط اليومي للكتابة واصبحت الاديان والمعبودات المحلية اكثر الفة، كما استمر التداول بالمقاييس والنظام القضائي والتقويم عبر الامبراطورية منذ فرضها في العهد الاشوري. ان ما ينيف عن قرنين من حكم الاخمينيين ساعد على صيانة الهوية الاشورية للشعوب الناطقة بالارامية. ورغم افول الهيمنة الاشورية فان ولاية آشور بقيت، في عيون العالم القائم انذاك، على الخارطة ككيان سياسي وبسكان اشوري، ولربما يبدو متناقضا الادعاء بان المجازر والاضطهادات بعد سقوط نينوى قد عززت الهوية الاثنية والوطنية للاشوريين. هكذا نرى ان نبونيدس، الملك الاخير لحكم بابل، الذي كان آشوري الاصل، عاد الى ممارسة اللقب والاسلوب الملكي الاشوري في ديباجة مراسيمه وشجع علنا الثقافة والديانة الاشوريتين. حدث كل هذا كرد فعل قوي ضد السلالة الكلدانية التي اغتصب الحكم منها. ولا عجب اذا ما ورد ذكر نبونيدس في كتابات المؤرخين الاغريق هيريدوتس وزينوفون كملك اشوري.

### 3.3 الهوية الاشورية في الازمنة الهيلينية (الاغريقية) والرومانية

في عهد خلفاء اسكندر الكبير (المقدوني) اضحت بلاد آشور مركز السلطة للامبراطورية السلوقية التي في اوجها شملت اكثر الاراضي التي كانت سابقا تمثل الامبراطورية الاشورية. ورغم ان الملوك السلوقيين استمروا في تطبيق سياسة الهلينة (Hellenization) وشددوا على اصولهم المقدونية، الا انهم واصلوا ممارسة الاساليب الادارية للاخمينيين التي تضمنت احترام التقاليد المحلية. ومع مرور الزمن بدأ السلوقيون تدريجيا بالاندماج بالسكان المحليين. وفي نظر من عاصرهم، كانت الامبراطورية السلوقية استمرارا للامبراطورية الاشورية. وفي لفائف البحر الميت والتلمود البابلي تُعرف الدولة السلوقية بـ "اشور". اما في كتابات يوسيبوس فتسمى (Assuriōn basileía) اي مملكة الاشوريين.

وعندما تقسخت الامبراطورية السلوقية في نهاية القرن الثاني ق.م، تم الحاق بقاياها الغربية بروما بينما العديد من الممالك شبه المستقلة ذات المسحة الاشورية او الهوية الاشورية المتميزة (مثل اديابين وعسريهون وحضر واشور) برزت فجأة في الشرق تحت حكم الفرثيين. واصلت هذه الممالك التقاليد الدينية والثقافة الاشورية التي كانت اصلا منسجمة مع المسيحية حيث كانت عقائدها الاساسية تناظر المقومات المركزية للديانة والايديولوجية الاشوريتين. كما ان اقتران اللغة الارامية بالمسيح وتلامذته جعلت الاشوريين يرون الدين المسيحي اشوريا في باطنه (مضمونه). اما الغرب الروماني فهو الاخر واصل التقاليد الاشورية. وهكذا نرى ديمومة الدين الاشوري جنباً الى جنب مع المسيحية في كل المدن الرئيسية لحد الازمنة المتأخرة.

في القرن الثاني ب.م. نرى اثنان من الكتاب من سوريا الرومانية باسم لوسيان (Lucian) وتيتيان (Tatian او طيطيائس) يعترفان بحزم بكونهما اشوريان (Assúrios). وهذا التعريف الشخصي لنفسيهما غالبا ما يُساء تفسيره باعتباره ليس الاشارة الى اثنيتهما السورية (اي انهما جغرافيا من سورية) الا انهما يتكلمان الارامية كلغة الام. وما لا يرقى اليه الشك هو ان النصوص ذات العلاقة تبين بانهما كانا يشيران بالخصوص الى هويتهم الاصلية وتراثهم الثقافي التي اصرّوا على تمييزها بتحدٍ عن الثقافة والتراث الاغريقيين. لقد كان تراثهم اشوريا. والجدير بالتاكيد انه كان من الممكن ان تكون التسمية (Assúrios) قد استعملت في الازمنة الرومانية لتشير الى اي



ساكن في منطقة سوريا الرومانية، ولكن في اعتقادي ان التسمية لا تعني إلا بلاد آشور. وهذا الرأي يُدعم بعدم وجود اي كيان سياسي لسوريا في الازمنة القديمة. وفي المصادر الارمنية والفرثية والمصرية في عهد الرومان، فان سوريا الرومانية سُميت بثبات وجلاء "آشور" (Išr 'Asorik' ; swry).

## الهوية الاشورية اليوم

اعتنق الاشوريون الدين المسيحي باعداد كبيرة منذ القرن الثالث فصاعداً، رغم ان الدين الاشوري استمر في الوجود حتى القرن العاشر ب.م. في اماكن اخرى مثل حرّان، وفي ماردين حتى القرن الثامن عشر ب.م.

ان التعلق الحميم بالعقيدة المسيحية منذ القدم وحتى اليوم جعل المسيحية جزءاً لا يتجزأ من الهوية الاشورية رغم انها عرّضتهم الى اضطهادات ومجازر لا متناهية على ايدي الرومان أولاً ومن ثم على ايدي الفرس الساسانيين وحديثاً على ايدي العرب والاكراد والأتراك. هذه الاضطهادات والمجازر اختزلت تعدادهم من 20 مليون نسمة تقريباً الى اقل من مليونين. كل هذه المصائب شنتت الامة الاشورية غير انها ايضا اجبرتها على الديمومة عبر آلاف السنين وتمّ اجبار اعداد لا تُحصى منهم لتغيير هوياتهم. إلا ان البعض الاخر رفضوا الانصياع وفضّلوا الشهادة على مسخ هويتهم ودينهم. وتشهد بعض المصادر الدينية مثل سيرة الشهداء بالسريانية بان الاشوريين في عهد الفرثيين كانوا يعتزون بماضيهم المشرق وان الكثير من النبلاء نسبوا سلالاتهم الى البيت الاشوري الملكي. والكنيسة النسطورية (كنيسة المشرق) – التي كانت لها العديد من الاديرة والاسقفيات في القرن السابع منتشرة في وطنهم القديم من ضمنها نينوى المقرونة بابرشية آشور – اكدت هويتها الاشورية باصرار.

واليوم فان اغلبية الامة الاشورية تعيش في المهجر ومنقسمة الى العديد من الكنائس والتجمعات السياسية المتنافسة. ان اقدار الناس الذين يكوّنون هذه الامة قد سارت في اتجاهات مختلفة عبر الالف السنين مسببة تغيير هوياتهم عبر هذه المسيرة. ان السريان في الغرب قد تأثروا كثيراً بالاغريق، اما الاشوريون (الاثوريون) في الشرق فلقد ظلوا منذ القدم تحت تأثير الثقافة الايرانية. ومن التناقض ان نرى مع تاسيس الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية في 1553 ، شرع العديد من الاشوريين (الاثوريين) المعاصرين من سكنة قلب آشور يعرفون انفسهم بالكلدان وهي تسمية مقترنة بالسلالة البابلية التي اسقطت نينوى والامبراطورية الاشورية.

مع الفرقة والتشتت والضمور في عدد السكان وغياب الحقوق المدنية الكاملة، فان الاشوريين معرضون الى التماثل (الانصهار) والزوال الكلي. لذا، ومن اجل استمرار ديمومتهم كأمة، عليهم الوحدة تحت هوية اجدادهم الاشورية. انها الهوية الوحيدة التي يمكن ان تساعدهم على تخطي الاختلافات فيما بينهم لتوحيد صوتهم، وجلب انتباه العالم واستعادة مكانتهم بين الامم الاخرى.